الجهل بأسرار «الفضاء الداخلى» مسئول على الزعم باحتمال زوال الدين !

الفضاء الداخلى

الكثيرين يظنون أن المشكلة الوحيدة التى ماتزال تؤرق بال الإنسان والتى ما تزال تستحق منه . دون سواها . كل أهتمام أنما هى مشكلة «غزو الطبيعة» وليس من شك فى أن حل الكثير من مشكلات الإنسان الاقتصادية والسياسية فى المستقبل القريب أو البعيد سيظل متوقفا على مدى نجاح إنسان الغد فى السيطرة على الطبيعة ولكن من المؤكد مع ذلك أن كل نصر يحرزه الإنسان على الطبيعة لابد من أن يضطره إن عاجلا أو آجلا إلى إعادة تقيم ذاته من اجل سبر اغوار نفسه والوقوف على حقيقة مراميه ومقاصده فى الحقبة المقبلة.

ولو أننا سلمنا اليوم بما يقوله بعض علماء المستقبل ونحن فى عصر جديد ألا وهو عصر «الإنسان التكنولوجى» لكان علينا أن نعترف بأن مشكلة التوازن بين الإنسان والطبيعة أو بين عالم القيم وعالم الوقائع ستفرض نفسيا علينا من جديد فى ضوء ما استجد «وما سوف يستجد» على البشرية من ظروف وجودية معقدة.

والحق أن التطورات الجديدة التى يتنبأ بعض رجالات المستقبل بقرب حدوثها «خصوصا فى مضمار الطب وعلم الأحياء» قد أصبحت تتطلب من المهتمين بشئون الحضارة البشرية التفكير جديا فى إعادة النظر إلى أهداف الإنسان الحقيقية بالاستناد إلى نظرة شاملة عميقة تكون هى الكفيلة بالكشف عن أسرار «الفضاء الداخلى» للنفس البشرية فليس يكفى مثلا أن يسارع بعض الباحثين إلى الإعلان عن قرب زوال عهد الدين لمجرد أن الناس فى معظمهم قد أصبحوا يسلمون بالنظرة العلمية إلى الكون بل لابد لأمثال هؤلاء الباحثين من النفاذ إلى أعماق أعماق النفس البشرية من أجل الوقوف على الحاجات الروحية الدفينة التى تشبهها الروح الدينية وفى مقدمتها الإيمان بمعنى الحياة والتسليم بقيمة الوجود والأقرار بوجود حقيقة عليا تتجاوز حقيقة دائرة التجربة البشرية المتناهية.

إذن فإن الزعم بأننا نسير سيرا ونبدأ نحو عصر جديد سوف يصبح الدين فيه أثرا بعد عين إنما هو فى رأينا زعم واه لا يستند إلى معرفة صحيحة بخبايا الفضاء الداخلى للإنسان وخفايا الحاجات العميقة الدفينة فى صدر الموجود البشرى وإذا كان بعض المتحمسين من دعاة العصر التكنولوجى من أهل أوروبا ما يزالون يؤمنون ببقية من القيم المسيحية «خصوصا فيما يتعلق بمعنى الحياة البشرية» فما ذلك إلا لأنهم قد فطنوا إلى أن الإنسان حتى فى العصر التكنولوجى . سيظل مختلفا من حيث الكيف عن الآلة.

ومهما يكن من شىء فإن الحاجة أصبحت ماسة اليوم إلى نظرة تكاملية جديدة تدخل فى حسابها كل خبرات الإنسان المعاشة بما فيها الخبرة الدينية والخبرة الجمالية والخبرة الاخلاقية.. إلى غير ذلك حتى لا يكون الحكم على المقاصد الحقيقية للموجود البشرى وليد نظرة جزئية قاصرة تسقط من حسابها جانبا هاما من أنشطة الحياة الإنسانية.

ونحن نعرف أن بعض فلاسفة الحضارة قد تنبأوا بقرب حلول عهد الرخاء الاقتصادى الذى ستخف معه الحاجة إلى العمل وتزداد الرغبة فى اللعب خصوصا بعد تزايد أوقات الفراغ ولكن المهم أن نقف على نوع اللعب الذى سيكون هو الكفيل باشباع الحاجات الدفينة الباطنة فى أعماق الفضاء الداخلى للإنسان.

والواقع أن اللعب أن لم يجىء مشبها لامثال تلك الحاجات فإنه لن يكون إلا عاملا جديدا من عوامل السأم مثله في ذلك كمثل أية صورة بغيضة من صور العمل وإذن فإن الحاجة إلى معرفة أسرار الفضاء الداخلى تمثل شرطا ضروريا لاغنى عنه لكل محاولة جديدة يراد من ورائها إعادة توجيه الحضارة.

لابد لنا من أن نعرف «من نحن» حتى نعرف ماذا نفعل

إن حركة سباق غزو الفضاء الخارجى بلا شك ستظل قائمة على قدم وساق وربما من المحتمل أيضا أن ينجح انسان العصر التكنولوجى فى اخضاع المحيطات والسيطرة على البحار.

ولكن ما لم يشرع البشر منذ الآن فى تحديد الاغراض التى من أجلها يقومون بمثل هذا النشاط فقد تصبح عملية غزو الفضاء وقهر المحيطات مجرد فرصة أخرى لتزايد الاضطراب الاجتماعى وتضاعف خطر الانحراف الحضارى وتفاقم احتمالات انفجار حرب عالمية ومعنى هذا أنه لابد للبشرية أن تأخذ على عاتقها مهمة التعرف على حقيقة نواياها ومقاصدها وأهدافها حتى تصبح عملية «توجيه المستقبل» عملية واعية مرسومة واضحة المعالم ولن يتأتى للبشر أن يعرفوا على وجه التحديد ماذا يردون إلا إذا جاءت عملية غزو الفضاء الداخلى فوضعت بين أيديهم صورة صحيحة دقيقة متكاملة لما يمكن أن يصبح عليه الإنسان فى المستقبل القريب حتى يستعيد هويته ويصبح عين ذاته وإذن فإن تكوين الإنسان لفكرية صحيحة عما يريد القيام به وما ينبغى الوصول إليه أمر

بقلم

د. أشرف فتحى محمود الجندى
عضو الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية

مرهون بمدى نجاحه فى اكتشاف ذاته والوقوف على امكاناته الباطنية العميقة، ومن هنا فقد يصح أننا إذا لم نعرف من نكون فإننا لن نستطيع مطلقا أن نعرف ما الذى ينبغى لنا أن نقول أو ما الذى يجدر بنا أن نضعه نصب أعيننا فى برامجنا التكنولوجية المقبلة.

وأخيرا: الإنسان مايزال أمل الإنسان!!

وبعد لقد دلتنا التجربة البشرية الطويلة على أنه ليس ثمة توقف فى تاريخ الإنسان فإن سير البشرية مستمر وحركة الإنسان نحو المستقبل دائبة ومظاهر الجدة فى الحياة البشرية مطردة ومهما يكون من أمر الكشوفات التى استطاع أصحاب العلوم الإنسانية حتى الآن أن يحققوها فى مضمار غزو الفضاء الداخلى فإن سر النفس البشرية مايزال بكرا أو شبه بكر: وربما كان من بعض أفضال الاكتشافات العلمية على الحضارة البشرية أنها تلزم الإنسان فى كل عصر بمعاودة النظر فى حساباته القديمة من أجل العمل على إعادة تقييم الإنسان.

واليوم يجىء تقدم الحضارة التكنولوجية الحديثة فيضطرنا مرة أخرى إلى الغوص فى مجاهل النفس البشرية والسعى نحو الكشف عن أسرارها العميقة الدفينة من أجل ملاحقة حركة غزو الفضاء ولكن فى الاتجاه الآخر المقابل لها إنه «الفضاء الداخلى» بكل أبعاده وأعماقه وأسراره وهو فضاء سحيق عميق دفين ولكنه فى الوقت نفسه حافل بالاعجايب والمعجزات والكنوز المجهولة!.

وليس ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الإنسان قد استطاع حتى الآن أن يفض كل امكاناته أو أن يسبر غور كل قواه فما يزال الإنسان «املا للإنسان وما تزال القصة التامة المتكاملة للوجود البشرى حلما يراود مكتشفى «أو مرتادى» الفضاء الداخلى!.

فلنقل إذن إن كل الأفاق ماتزال مفتوحة أمام رواد الفضاء الداخلى ولنعترف بأن الموجود البشرى لم يصبح حتى الآن كل ما هو ميسر لأن يكونه ولم ينجح إلى هذه اللحظة فى بلوغ كل ما يصبو إليه وما دامت النفس البشرية عالما مرنا معقدا كثير الاحتمالات فستظل عملية «غزو الفضاء الداخلى» مهمة عسيرة لاتخلو من مخاطر وصعوبات وإن تكن فى الآن نفسه رحلة مشوقة لا تخلو من كشوف ومفاجآت!.

كيف تواجه الحياة؟

كيف تواجه الحياة؟ على قدر استعدادك للمواجهة يكون نجاحا مهما كانت صعوبة المواجهة فالخالق عز وجل قال لك ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون﴾ فمتعة الحياة فى التعب والجهد

ما هى درجة استعدادك؟

كان هناك مدرس مجتهدا يقدر التعليم حق قدره يريد أن يختبر تلاميذه اختبارهم الدورى عندما موعده ولكنه أقدم على فكرة غريبة وجديدة لهذا الاختبار فهو لم يجر اختبارا، عاديا وتقليديا بالطرق التحريرية المتعارف عليها ولا بالأساليب الشفهية المألوفة، فقد قال لطلبته إنه حضر ثلاثة نماذج للامتحان يناسب كل نموذج منها مستوى معينا للطلبة.

النموذج الأول للطلاب المتميزين الذين يظنون فى أنفسهم أنهم أصحاب مستوى رفيع وهو عبارة عن أسئلة صعبة

النموذج الثانى متوسطى المستوى الذى يعتقدون أنهم غير قادرين إلا على حل الأسئلة العادية التى لاتتطلب مقدرة خاصة أو مذاكرة مكثفة.

النموذج الثالث يخص ضعاف المستوى ممن يرون أنهم محدودو الذكاء أو غير مستعدين للأسئلة الصعبة أو حتى العادية نتيجة إهمالهم وإنشغالهم عن الدراسة.

أى نموذج ستختار أنت؟

وبعد أن تعجب التلاميذ من أسلوب هذا الاختبار الفريد من نوعه والذى لم يتعودوا عليه طوال مراحل دراستهم المختلفة وراح كل منهم يختار ما يناسبه من ورقات الأسئلة وتباينت الاختيارات .

عدد محدود منهم اختار النماذج التى تحتوى على الأسئلة الصعبة

وعدد أكبر منهم يقليل تناول الورقة الخاصة بالطالب العادى.

وبقية الطلاب تسابقوا للحصول على الوريقات المصممة للطلاب الضعاف.

وقبل أن نعرف معا ما حدث فى هذا الاختبار العجيب دعنى أسألك: ترى أى نموذج كنت ستختار لو كنت أحد طلاب ذلك الفصل؟

وبدأوا حل الاختبار ولكنهم كانوا فى حيرة من أمرهم فبعض الطلاب الذين اختاروا الأسئلة الصعبة شعروا بأن الكثير من الأسئلة ليست بالصعوبة التى توقعوها.

أما الطلاب العاديون فقد رأوها بالفعل أسئلة عادية قادرين على حل أغلبها، وتمنوا من داخلهم لو أنهم طلبوا الأسئلة الأصعب فربما نجحوا فى حلها هى الأخرى.

أما الصدمة الحقيقية فكانت من نصيب أولئك الذين اختاروا الأسئلة الأسهل، فقد كانت هناك أسئلة لايظنون أبدا أنها سهلة.

لحظة منح الدرجات

وقف المدرس يراقبهم ويرصد ردود أفعالهم وبعد أن انتهى الوقت المحدد للاختبار جمع أوراقهم ووضعها أمامه وأخبرهم بأنه سيحصى درجاتهم أمامهم الآن

دهش التلاميذ من ذلك التصريح فالوقت المتبقى من الحصة لايكفى لتصحيح ثلاث أو أربع ورقات فما بالك بأوراق لفصل كله .

واشتدت دهشتهم وهم يرون معلمهم ينظر إلى اسم الطالب على الورقة وفئة الأسئلة، هل هى للمستوى الأول أو الثانى أو الثالث ثم يكتب الدرجة التى يستحقها.

ولم يفهم الطلبة ما يفعل المعلم وبقوا صامتين متعجبين، ولم يطل عجبهم فسرعان ما انتهى الأستاذ من عمله ثم التفت اليهم ليخبرهم بعدد من المفاجآت غير المتوقعة

صدمات غير متوقعة

أفشى لهم الأستاذ أسرار ذلك الاختبار.

- فأول سر أو مفاجأة تمثلت فى أن نماذج هذا الاختبار كلها متشابهة ولايوجد اختلاف فى الأسئلة
- أما ثانى الأسرار أو المفاجآت فكانت فى منح من اختاروا الأوراق التى اعتقدوا أنها تحتوى على أسئلة أصعب من غيرها درجة الامتياز وأعطى من تناول ما ظنوا أنها أسئلة عادية الدرجة المتوسطة أما من حصل على الأسئلة التى فكروا فى كونها سهلة وبسيطة فقد حصل على درجة ضعيف.

وبعد أن فغر أغلب الطلاب أفواههم دهشة واعتراضا، وعلى وجه الخصوص أصحاب الأسئلة العادية والسهلة راحوا يتأملون كلام الأستاذ لفهم مقصده.

وأكد هذا المدرس هذا المقصد عندما أعلن لهم بأنه لم يظلم أحدا منهم ولكنه أعطاهم ما اختاروا هم لأنفسهم فمن كان واثقا فى نفسه وفى استذكاره طلب الأسئلة الصعبة فاستحق العلامات النهائية

ومن كان يشك فى إمكانياته ويعرف أنه لم يذاكر طويلا فقد اختار لنفسه الأسئلة العادية فحصل على العلامة المتوسطة. أما الطلاب الضعاف المهملون الذين يرون فى أنفسهم التشتت نتيجة لهروبهم من التركيز فى المحاضرة أو الحصة ثم تجاهل مذاكرة الدروس فهؤلاء فرحوا بالأسئلة السهلة فلم يستحقوا أكثر من درجة ضعيف .

●●●

وهكذا هى اختبارات الحياة

فكما تعلم هؤلاء الطلبة درسا صعبا من هذا الاختيار العجيب عليك أنت أيضا أن تعلم زن الحياة تعطيك على قدر ما تستعد لها وترى فى نفسك قدرات حقيقية على النجاح وأن الآخرين سواء أكانوا أساتذة أو رؤساء عمل أو حتى أصدقاء ومعارف لن يعطوك أبدا أكثر مما تعتقد أنك تستحق، فإذا أردت أن تحصل على أعلى الدرجات فى سباق الحياة فعليك أن تكون مستعدا لطلب أصعب الاختبارات دون خوف أو اهتزاز للثقة.

فهل أنت جاهز للاختبارات الصعبة أو أنك ستفضل أن تحصل على درجة ضعيف؟